براعم شعراء الشباب

للأستاذ أحمد أحمد العجمي

في فصل الربيع من كل عام تأخذ الأرض زخرفها، وتلبس أجمل ملابسها المركشة الملونة بأجمل الألوان، وتتجلى مفاتن الطبيعة في أبهج صورها البهية على ضفاف الترع والجداول وشواطئ الأنهار، بأنواف الأزهار والنوار والرياحين، في بطون الوديان وعلى ظهور الكثبان وبين جنبات الحقول والبساتين

وتبدأ الأشجار تروى قصة الخصب والري والنضارة، وتؤدي دورها الخالد المتجدد على مسرح الحياة: تكتسي بعد عرى، وتروى بعد ظمأ، وتلين بعد جفاف طويل. كل يوم يمضي تبرز إلى الوجود براعم جديدة وليدة، تبدو على جوانب الأغصان، وتتفتح على أشعة الشمس، وتنعقد عليها أكاليل الندى كل صباح

هذه البراعم الحديدة الوليدة في الحدائق والبساتين هي براعم شعراء الشباب في حديقة الشعر والشعور

تظل براعم الأشجار تتجدد وتتعدد وتنمو في كل ربيع، بعضها يبلغ منتهاه ويصل إلى مداه في النمو الدائم عاماً بعد عام، وبعضها يدركه العطب أو يلحقه الجفاف فيذوى وهو غصن صغير

وهكذا براعم شعراء الشباب!

بعضهم تنمو قريحته وتزهو عبقريته عاماً بعد عام، فيتوالى إنتاجه ويتضح منهاجه وتصفو ملكته من الصنعة أو الزيف أو التقليد، وبعضهم يدركه العجز أو الوهن فيظل كالفاكهة الفجة، هي على الشجرة فاكهة بين الفواكه، ولكنها لا ترى ولا تشوق ولا تذاق!

في النصف قرن الأخير، شهدت مصر خاصة، وشهد العالم العربي عامة، بل شهد العالم في كل قطر ومصر — نهضة أدبية شاملة، في كل لون من ألوان الأدب، وفي كل عنصر من عناصر الفن؛ كانت رد فعل طبيعي لما ران على العقول والمواهب والملكات، من ظلمات العصور المنيرة: عصور الظلم والنهب والاستبداد في الحكم، وعصور الجهل والجدب والتقليد في الآداب والعلوم والفنون

وكان حظ مصر عظيما موفورا في الحالين: كان حظها في عصر المماليك وقبله بقليل بضع محسنات لفظية سخيفة يسمى إليها الشاعر سعيا واضحا مكشوفا كالص الأبله يسرق الناس في رائعة النهار! فإذا تجاوز المحسنات كان همه السطو على المعاني القديمة أو تقليد كبار الشعراء في عصور الحضارة السالفة، وكان حظ مصر عظيما في النهضة الأدبية الأخيرة المباركة في كل وجه من وجوه الثقافة، ولاسيما الشعر، فقد قطعت فيه شوطا بعيدا وأحرزت فيه قصب السبق في حلبة الفنون

في الخمسين سنة الأخيرة، منذ وفاة محمود سامي البارودي، أول طلائع النهضة الحديثة، إلى الآن — لمعت في سماء الشعر شموس وأقمار وكواكب متعددة، توشك أن تكون خمسين شاعراً، وهو عدد — بحمد الله — ليس بقليل!

ربما يخطر في بالك الآن، هذا المثل العامي الظريف: «العدد في الليمون .. !» وربما استغرق في الضحكة، أو تسرف في التجني، فتقول: إن خمسة فقط من هؤلاء الخمسين هم الخالدون الذين يعتد بهم ويعول عليهم، وتحفظ أشعارهم على أنها نماذج رائعة للخيال المنتج والتعبير الجميل، ومناهج مبتكرة للشعور الصادق والفن الأصيل. وأن هؤلاء الخمسة كالصلوات المكتوبة: خمس في العدد، وخمسون في الأجر والثواب!

فدعني أسألك هذا السؤال: من هؤلاء الخمسة الشعراء؟ فتسرع بالجواب: البارودي وصبري وشوقي وحافظ ومطران، فأقول: هؤلاء جميعا في فراديس الجنان، فما بالك بالأحياء؟ فتقول، العقاد وناجي ورامي وعزيز أباظة وعبد الرحمن صدقي، فأستدرك قائلا: ولكن في الطائفة الأولى أعلاماً يجب أن تذكر بالحمد والثناء. حفني ناصف وولي الدين يكن ومحمد عبد المطلب وأحمد محرم وعلي الجارم وزكي مبارك وعلي محمود طه وعبد الحميد الديب وتخرى أبو السعود؛ وفي الطائفة الأخيرة عبد الرحمن شكري ومحمد الأسمر وصالح جودت ومحمد مفيد الشوباشي وعبد اللطيف النشار .. فتصيح من فرط الغضب أو من فرط الدهشة، أو من ملل السرد على الأصح: آمنا وصدقنا

يا أخي !! عشرون شاعراً أو ثلاثون ..

كم شاعراً من هؤلاء جميعا يستحق الدراسة ، ويحتاج إلى البحث والاستقصاء ؟ — جميعهم بلا استثناء .. !

نعم جميع هؤلاء الشعراء في حاجة ماسة إلى دراسة جديدة تبتعد عن الغلو والملق والمجاملة ، وعن التجني وسوء الظن والزراية . وقد كتبت فيهم جميعا كتابات أكثرها إن لم يكن جميعها لا يخلو من عيب من هذه العيوب

وليس هؤلاء الشعراء وحدهم في حاجة إلى أمثال هذه الأبحاث ، بل إن هناك من هم أحق منهم بهذه الدراسات وأولى بالنظر والتعريف ... هؤلاء هم شعراء الشباب

ما أحوج شعراء الشباب جميعا إلى دراسات منظمة وأبحاث مستفيضة في اتجاهاتهم الفنية ومذاهبهم الشعرية وألوانهم المختلفة في الشعور والتعبير ، وما أشد حاجة هذه البراعم الغضة البضة في حديقة الشعر إلى من يتولاها بالرى والتشذيب وينير لها السبل . في الصفوف الخلفية مواهب وقرائح وعبقريات مبعثرة ، أكثرها مع الأسف مدفون في التراب ، لولا ما يتنفس به بعضهم حينا بعد حين ، في الهواء الطلق والجو الفسيح ولو أتيحت الفرصة المناسبة لكثير من براعم شعراء الشباب لكان لنا طبقة جديدة وجيهة قوية تتجه بالشعر إلى أسمى المناهج الحديثة ، وتصل بالفن إلى أعلى مراتب الخلود

وإذا كانت هذه البراعم الغضة في حاجة إلى النقد والتمحيص فلكي ننوه بها ونشد أزرها ونشجعها على السير الطويل في طريق الشعر بخطى راسخة وجهاد لا يلين ، بدقة وفطنة وإحكام ؛ حتى لا تتكرر المأساة من جديد ... مأساة التخبط والتقليد

لو أن إسماعيل صبري أخلص النصح لشوقي ، وزين له في نشأته الأدبية اعتماده على نفسه ؛ فنبت على ساقه رقاص إلى أعماقه ، وعبر عن نفسه ورأيه وشعوره لكان لنا من شوقي « أمير شعراء » غير الذي كان ...!

ولو أن شوقي رسم الطريق أمام راسي ، لحبب إليه الجزالة والرصانة والفحولة — لكان راسي شاعر الشباب الدائم ولو جاوز التسعين ...!

ولو أن مصطفى علي عبد الرحمن ، اغترف من بحر راسي ، ونسج على منواله في الشعر الغنائي مع تعمق ورسوخ لرق شعره وراق !

ومن ناحية أخرى لولا أن العقاد آثر ابن الرومي كل هذا الإيثار ، وأحب مذهبه الشعري كل هذا الحب — لما جنى ابن الرومي على شعر العقاد ، وكاد يجعل بعضه سراديب عقلية وفكرية ينقصها نور العاطفة الشبوبة في شاعر كبير كالعقاد ..!

وكذلك لولا أن سيد قطب وأحمد مخيمر والموضي الوكيل هاموا زمناً طويلا بشعر العقاد وطريقة العقـــاد — لكان لإنتاجهم رونق أجل وأشخصياتهم صور تختلف عن الأصل في بعض الملامح والسمات !

من هنا تبدو بوضوح جناية التقليد والاحتذاء ، وتبدو من الجانب الآخر جناية السير على غير هدى ولا اقتداء . ومن هنا أيضا تأتي مهمة الناقد الأمين الحريص على رسم الخطوط ، وهداية الضال إلى الطريق القويم

ويخيل الى أن نقد كبار الكتاب والشعراء والفنانين عامة ليس نقدا صحيحا صريحا ؛ لأنه يغلب عليه الإعجاب والإكبار ، وتبرير الأخطاء أحيانا ، وأحيانا يغلب عليه التهجم والتنقص والتجريح لسبب من الأسباب

ويخيل إلى أيضا أنه مضت فترة طويلة خلا فيها الجو الأدبي من النقد الصحيح في ميدان الشعر الحديث ، وأن الحاجة ماسة إلى ناقد يكمل هذا النقص ويسد هذا الفراغ الموحش الرهيب . وسأحاول بقدرتي المحدودة وجهدي الضئيل ، أن أحمل على عاتقي هذا العبء الثقيل

وأود قبل أن أتناول بعض الشعراء بالنقد والدراسة أن أشير إلى منهجي في البحث إشارة خاطفة : سأخص كل شاعر على انفراد بدراسة مجملة أنبه فيها إلى الخطوط الرئيسية في شعره ، فأشيد بمحسناته ومزاياه ، وأشير إلى بعض العيوب وجاه اجتنابها والسعي الحثيث إلى الكمال ، على أني سأبدأ بدراسة « براعم شعراء الشباب » ؛ لإمكان انتفاعهم بهذه الدراسة ، وشحذ ملكاتهم النفاذة إلى الأعماق . وسأتناول شعراء مصر وشعراء